المصون فى سر الهوى المكنون

كتاب مجهول للحصرى القيروانى

د. حسن ذكرى حسن مدره
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

سطر الحصرى القيروانى العديد من المؤلفات الأدبية والنقدية ، ولكن حدثان الزمن ونوائبه أتت على معظمها ، فلم يصلنا منها سوى ثلاثة كتب فقط ، ذاع اثنان منها ، واشتهر أمرهما ، وهما كتاب : « زهر الآداب وثمر الألباب » ، وكتاب « جمع الجواهر فى الملح والنوادر » ، أما الكتاب الثالث - وهو « المصون فى سر الهوى المكنون » - فقد ظل مجهولا إلى وقت قريب ، لم يطلع عليه أحد ، ولم يعرف عنه شىء ، اللهم إلا بعض الإشارات الموجزة ، والتعريفات المجملة ، سجلتها عنه بعض المصادر ، التى ترجمت للحصرى ، وعرفت بماله من كتب ومؤلفات ، وهى فى مجملها لا تعطى تصوراً كاملا ووافياً لموضوع الكتاب ومحتوياته ، يروى ظمأ الباحثين والدارسين ، ويشفى غلتهم ، وظل الأمر كذلك ، حتى هيأ الله الظروف ، وتمكنت أخيرا من العثور على نسختين لهذا الكتاب ، أحدهما بمكتبة شيخ الإسلام « عارف حكمت » بالمدينه المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والثانية : بمكتبه « ليدن » بهولندا ، فعملت جاهدا فى سبيل الحصول عليهما ، وما إن تحقق ذلك بفضل الله وعونه ، حتى استعنت بالله ، وبدأت العمل فى تحقيقه وإخراجه ، وبعثه إلى عالم الحياة والنور ، بعد أن قمت بتصحيحه وضبطه ، وتكملة نقصه ، وإعداد مجموعة كاملة من الفهارس المفصلة لموضوعاته ، حتى يسهل الانتفاع به ، وتتيسر عملية الاستفادة منه على أكمل وجه .

وهذه نبذة موجزة ، نسلط الضوء من خلالها ، على مضمون ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتاب ، الذى ظل مجهولا لفترة طويلة ، حتى نتمكن من التعرف عليه ، والوقوف على ما به من موضوعات وقضايا ، وما يتضمن من آراء وأفكار تلقى مزيدا من الضوء على مكانة الحصرى ومنزلته الأدبية والنقدية ، ونسهم فى تحديد الدور الذى قام به فى ازدهار الحياة الأدبية والنقدية فى القيروان ، خلال القرن الخامس الهجرى .

الحصرى القيروانى:

هو إبراهيم بن على بن تميم القيروانى ، المتوفى عام ٤١٢ هـ ، من أدباء المغرب المشهورين ، عاش فترة من أزهى فترات الازدهار الثقافى والفكرى فى بلاد المغرب على امتداد تاريخها ، وكان له دوره الواضح فى إثراء حركتها من الناحيتين الأدبية والنقدية ، حتى غدا قطبا من أقطابها المبرزين ، الذين دارت حولهم الحياة الأدبية فى القيروان ، فى مطلع القرن الخامس الهجرى .

عاصر الحصرى فترة من أخصب فترات الثقافة والفكر ، خلال عصرين مهمين هما العصر الفاطمى ، ثم العصر الصنهاجى ، ولكنه آثر الابتعاد عن الساحة السياسية ، وفضل عدم الاندماج فيما يدور حوله من أحداث ، حرصا منه على التفرغ للعلم والأدب ، وترفعا عما يقع فيه الأدباء والعلماء من ملق وتزلف ومداهنة للحكام ، فصان بذلك ماء وجهه ، وحفظ كرامته ، وتفرغ لخدمة العلم والأدب ، حتى صار مقصدا للطلاب من كل مكان ، يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، كما أشـــار إلى ذلك تلميذه ابن رشيق القيروانى(١) .

لقد امتد تأثير الحصرى الثقافى والأدبى لكل أنحاء إفريقية ، بل وتجاوزها إلى كثير من الجهات بما فيها الأندلس التى كانت وثيقة الصلة بديار المغرب

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة جـ ٤ المجلد الأول ص ١٩٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آنذاك ، فاستطاع بواسطه ما قام به فى ميدان الأدب والنقد ، وما اتسم به منهجه من الأصالة التى تجلت فى العديد من كتبه ومؤلفاته ، أن يفرض نفسه معلما كبيرا ، برز أثره واضحا فى الحياة الأدبية فى المغرب والأندلس من القرن الخامس إلى عدة قرون تلت .

ويتجلى تأثير الحصرى الواضح من خلال مجالسه ، التى كان يؤمها جمع غفير من تلامذته ، وعلى رأسهم ابن شرف القيروانى ، وابن رشيق ، وأبو طاهر التجيبى ، وإسماعيل بن أحمد بن زيادة ، وغيرهم من الأدباء والشعراء ، الذين وفدوا إليه ، وقصدوه من كل مكان ، فوجه أنظارهم إلى الاهتمام بأدب المحدثين من المشارقة ، ودعاهم إلى الوقوف على ما به من جديد ، وما أصابه من تطور وتجديد ، مما أسهم فى وصول العديد من الفنون والآداب ، التى لم يعهدها المغرب من قبل ، حيث لفت أنظارهم إليها فى كتبه ومؤلفاته ، وأشاد بها خلال حلقات مجالسه ، كمقامات البديع الهمذانى ، وأساليب الصنعة والبديع ، وغيرها من التطورات والتحولات ، التى أصابت الحياة الأدبية فى المشرق ، وشغلت الناس هناك ، وكانت مثار حديثهم وتعليقاتهم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ؛ فأدى بذلك خدمة جليلة للحركة الأدبية فى المغرب . لا يمكن إغفالها .

---

(١)

منهج الكتاب وموضوعاته

أقام الحصرى كتابه « المصون فى سر الهوى المكنون » على هيئة حوار أدبى طريف ، جعله بين أليفين ، أفاضا فى حديث رفيق ومشوق ، يدور حول الحب وأحوال أهله من المحبين ، كشف فيه عن أسبابه ودواعيه ، وعلاماته ومظاهره ، وما يحدثه فى القلوب والأجساد ، وما يؤثر فيه ضعفا وقوة ، وما يجب فيه من طهر وعفاف . حتى يبقى ويستمر ، وغير ذلك من أمور تتعلق بهذا الموضوع .

وقد عرض الحصرى لكل ذلك من خلال آراء كثير من العلماء والمفكرين ، والأدباء والفلاسفة ، حتى ينتهى الكتاب ، فموضوعه يدور حول الحب والعشق ، وما يتعلق به من أمور ، ودراسته من خلال النصوص الأدبية ، وبخاصة أشعار العذريين ، وقصص وأخبار العشاق والمحبين .

ابتدأ الحصرى كتابه « المصون » بمقدمة مسهبة ، يعتريها بعض الطول ، وجه الخطاب فيها أحد الأليفين إلى الآخر . يشرح له كيف حار فى أن يجد من يفهمه ، أو من يطمئن إليه ، ليبوح له بما فى نفسه ، حتى اهتدى إليه ، فاطمأنت نفسه به ، وراح يفصح له عما يعتمل فى حناياه ، فيقول : « وشهدت أن الهوى يجدع العقل ويسحره ، ويملك اللب ويقهره ، ويغلب القلب ويبهره ، وعهدته لا يعلق إلا بذوى الأفهام اللطيفة ، والأرهام الشريفة .. إلخ »(١) .

وقبل أن ينطلق الحصرى فى تناوله لموضوع كتابه بالشرح والتحليل ، حاول أن يرفع الحرج عن موضوع كتابه ، ويدفع اللوم عن نفسه ، فوضح أن عمله هذا ليس معيبا ، حيث إن الحب والهوى حقيقة واقعة ، لم ينجو منها أحد ، مهما كانت مكانته أو علت منزلته ، حتى المشاهير من النابهين والصالحين

---

(١) المصون ص ٥٠ .

ومن العلماء والفقهاء والخلفاء والوزراء ، فالمحبة ، عاطفة إنسانية ، لم يسلم منها سوى أصحاب الخلق الجامية والبنية المنقوصة ، وكذلك الجفاة الأجلاف ، الذين ليس لديهم فضل ، أو يملكون شيئا من الفهم ، أو في طباعهم أدنى ظرف ، أو أقل لطف ، ويتوصل من خلال ذلك إلى أنه لا يسلم فاضل من الوقوع في الحب والهوى ، ولكن الناس يختلفون في طريقة التعبير عن تلك العاطفة ويتفاوتون في الكشف عنها ، فمنهم من أوتي من القوة والقدرة ، بحيث يتمكن من التحكم في مشاعره ، والسيطرة عليها ، والتغلب على هواه ، وضبط عواطفه ، فلا يظهر ما كمن في حنايا قلبه ، واضطرمت به نفسه ، ومنهم من حرم تلك القدرة ، وفقد تلك السيطرة ، فلا يستطيع أن يخفي ما أصابه من الحب والهوى أو يداري أعراضه وظواهره ، فيفتضح أمره . وينكشف ستره[1] .

وتدعيما لرأيه ، وتأييدا لوجهة نظره هذه ، راح يستعرض آراء عدد من هؤلاء المشهورين في ذلك ، ويذكر نبذا من أشعارهم ، والعديد من أخبارهم وقصصهم في هذا المجال . وتوسع في ذلك وأسهب بشكل ملحوظ .

وكأن الحصري كان يدرك أن تناول لهذا الموضوع سيقابل بالانتقاد واللوم ، كما حدث لغيره من الذين عرضوا لنفس الموضوع من قبل ، فحاول جاهدا أن يدافع عن نفسه ، ويرد على المنتقدين له ، قبل أن يطرح تصوره حول هذا الموضوع ، ولذا طالت مقدمته . فيقول : «قال علي بن الزنجاني : لا يخلو أحد من الصبوة . إلا أن يكون جامي الخلقة ، أو منقوص البنية ، أو على خلاف تركيب الاعتدال .

وقال إبراهيم بن الصبيح : سألت أبا نوفل المدني : هل يسلم أحد من الهوى ؟ قال : نعم ، الجافي الجلف ، الذي ليس له فضل ، ولا عنده فهم ،

---

(١) انظر المصون ص ٥٠ / ٥١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأما من فى طبعه أدنى ظرف ، وأقل لطف ، أو معه دمانة أهل الحجاز وحلاوتهم ، ورقة أهل العراق وأدبهم، فهيهات ، ما رأيت فاضلا يسلم من ألم الحب ، ولكن فى الناس من يملك نفسه ، ويغلب هواه ، ولا يظهر ما كمن فى قلبه .

وقال بعض الحكماء : الحب قسطاس العقول ، وجلاء الأذهان ، ينفى عنها الأذى والقذى ، كما ينفى الكير خبث الحديد .

وقيل لأبى السائب المخزومى : « أترى أحد لا يحب النساء؟ فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ... إلخ »(١) .

ويستمر فى عرضه هذا ، فيسرد جملة من الأقوال المشابهة لعدد من الأدباء والشعراء ، والفلاسفة والحكماء ، كما يعرض لمجموعة من أعلام الفقه والحديث الذين شهر عنهم شىء من هذا الطريق .

كل ذلك محاولة منه لدعم موقفه ، وردا على الذين الذين ينكرون تناوله لهذا الموضوع ، فيقول: « وقد كان كثير من أفاضل العلماء والأشراف يجرون من المحبة فى مضمارها ، لعلمهم بمقدارها، ويمشون فى سبلها، وليسوا من أهلها ، منهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وكان من أئمة التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة المدنيين ،وقيل له : أتقول الشعر على شرفك ؟ فقال :لا بد للمصدور أن ينفث ، وهو القائل :

شققت القلب ثم ذررت فيه ... هواك فليم فالتئام الفطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى ... فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور إلخ »(٢)

ومادام الأمر كذلك فلا حرج إذن فى الحديث عن هذا الموضوع ،

---

(١) المصون ص ٥١/٥٤ .
(٢) المصون ص ٥٦/٦٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حيث شهر بذلك عدد من أعلام الفقه والحديث ، فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم من المشهود لهم بالصلاح والتقوى ، كما ذكر عددا من الخلفاء والأمراء ، كالرشيد ، والمأمون ، وابن المعتز ، وإبراهيم بن المهدى ، وراح يستشهد ببعض أخبارهم وأشعارهم فى ذلك(١) .

لقد تعمد الحصرى فى ذلك التقديم الإسهاب والتطويل ؛ حيث وصل إلى أكثر من خمس وعشرين صفحة من صفحات الكتاب ، حتى يتمكن من إقناع منتقديه ، ولعل ذلك هو الذى جعل ابن داود من قبله لا يعمد إلى جعل كتابه « الزهرة » خالصا للحديث عن هذا الموضوع . وهروبا من هذا الاعتراض جعل ابن داود حديثه عن هذا الموضوع فى الجزء الأول ، كالتشبيب فى مقدمة القصيدة بين يدى المديح والوصف ، وجعل غرضه الرئيس الحديث عن تعظيم الله سبحانه ، وذكرى آلائه ، فكان الجزء الثانى خالصا لذلك ، ومع ذلك لم ينج ابن داود من التعبير بكتابه من بعض معاصريه ، فكان ابن سريج الفقيه الشافعى ، يقول لابن داود إذا ناظره أو حاوره متهكما به « عليك يا ابن داود بكتاب الزهرة »(٢) .

وما أن ينتهى الحصرى من دفاعه هذا ، ويطمئن إلى أنه قد أفحم منتقديه وأبطل حججهم ، حتى يعود إلى دراسة موضوعه محتكما إلى مقاييس الذوق والجمال ، فلا يفسح المجال لجدل يطول أو يقصر ، فى مدح العشق أو ذمه ، والاعتراض عليه ، مبنيا أن هذا الأمر يختص به أقوام ، رقت طباعهم ، وتآلفت أرواحهم ، ولا يعذلهم إلا من كان مثلهم ، فيبتعد بدراسته هذه عن التعرض للمسائل العقلية والمنطقية ، التى تحتاج إلى الاستدلال ، وتفتقر

---

(١) انظر المصون ص ٤٠/٧٣ .

(٢) دراسة الحب فى الأدب العربى ص ٥٢ نقلا عن مروج الذهب حـ ٨ ص ٥٠ ط باريس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الاحتجاج والإقناع ، حيث اقتصر فى كتابه على أحاديث العواطف ونفثات الصدور والقلوب وحدها .

ولكن المنهج سلكه الحصرى يختلف عن منهج ابن داود فى كتاب « الزهرة » من حيث التبويب والتنظيم ، فقد أرخى العنان لحديثه ، حتى ينطلق دون أن يحده شىء ، سوى الترتيب الذى تمليه عناصر الموضوع ويستلزمه الحديث عنها ، فيخرج فيه من موضوع إلى آخر ، مستقصيا الشواهد والأمثلة ، التى قد تطول بالقارىء ، مما يحتاج معه الحصرى إلى أن يذكر القارىء بالعودة مرة ثانية إلى ما انقطع من الحديث ، فعبارة « رجع إلى ما انقطع من الحديث » تقابلنا كثيرا بين موضوعات الكتاب المختلفة ، وهو فى هذا متأثر بالطريقة الجاحظية فى التأليف .

وما أن يفرغ الحصرى من الدفاع عن موضوع كتابه ، حتى يبدأ فى عرض الموضوع كما يتصوره ، عن طريق المحاورة بين الأليفين ، فيقول : « قد آثرت لما ذكرت ، أن أعقد حبى مجالستنا ، وأضم حواشى مؤانستنا ، على مسائل الهوى وحالاته ، ومراتبه ودرجاته ، استضىء فيها بنور حكمتك ، وأمشى إليها مع سراج هدايتك ، ونجعل ما نتجاذبه من أهداب المذاكرة ، ونتسالبه من من أثواب المحاورة ، ونقرعه من أبواب الخطاب على وجه المسألة والجواب ... إلخ »[1] .

وخلال تلك المحاورة ، يعرض الحصرى كل أفكاره وآرائه ، وآراء الذين نقل عنهم ، وتبدأ المحاورة بسؤال عن الأسباب التى يتولد عن طريقها الحب بين القلوب ، فيقول : « قال : فهاك - جعلت فداك - أوّل ذاك : ما الذى يزكو من القلوب ، وينيط ودائع الغيوب ، ويولد الهوى بين المحب والمحبوب ؟ »[2] .

---

(١) المصون ص ٧٩/٨٠ .

(٢) المصون ص ٨١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينتقل من الإجابة على ذلك السؤال إلى بقية أجزاء الموضوع ، من السؤال عن حالاته ومراتبه ودرجاته، وعوامل زيادته أو نقصانه وما يعرض للمحبين من سلو وهجر وبين وفراق وأسباب ذلك؟ وغيرها من الموضوعات التي تتصل بتلك العاطفة الإنسانية ، وما تحدثه من آثار في القلوب والنفوس، فيقول : « فأول الحب السماع والنظر ، كما أن أول الحريق الدخان والشرر .

قال بعض الشعراء :

الحب أوله حتى تهيم به ... نفس المحب فليق الموت كاللعب
يكون مبدؤه من نظرة عرضت
أو خطرة قدحت في القلب كاللهب
كالنار مبدؤها من قدحة فإذا
تضرمت أحرقت مستجمع الحطب

وقال آخر :

إني رأيت الحب ما بين الحشا ... له حلاوات وإمرار
الحب من سمع ومن نظرة ... يفعل ما لا تفعل النار إلخ(١)

هذه هي شراره الحب الأولى ، التي قد يستهان بها ، ويستصغر شأنها ، على الرغم من تأثيرها الخطير ، فالنظرة من المحب موت عاجل ، ومن المحبوب سهم قاتل ، يصيب فيودي ، ويقتل بدون سلاح .

ويتبع ذلك العديد من الشواهد الشعرية ، التي تدعم رأيه ، وتؤيد ما توصل إليه . هذا من جانب المحب، أما من المحبوب ، فيأتي من الاتفاق والمماثلة بين الشخصين ، حيث ترتفع بينهما حجب الكتمان ، فتلتئم القلوب والأرواح ، وتقوم الألفة بين أصحابها(٢) .

---

(١) المصون ص ٨٣/٨٥ .
(٢) المصون ص ٩٤/٩٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يعرض القضية المشاكلة ، ونظرية التعارف بين الأرواح فى عالم الأزل ، فيورد الحديث الشريف « الأرواح جنود مجندة » ، وقول بعض الحكماء أن الأرواح تتلاقى فى الملكوت فتتشام كتشام الخيل ، فتتقبل على من تآلف ، وتنفر عمن لم تعرف(١) .

وخلال ذلك يرجع الحصرى الحب بين المحبين إلى المشاكلة فى الطباع ، والمماثلة فى الخصائص والصفات ، وأن الأرواح تتعارف على أشكالها وموافقها فتعشقه وتحبه ، ويورد فى ذلك النماذج ، ويأتى بالعديد من الشواهد والنوادر والأشعار ، التى ينتقيها من رائع أشعار الغزل العذرى ، من الجاهلية وصدر الإسلام حتى العصر العباسى ، كما يعرض لآراء عدد من الفلاسفة ، الذين يرون أن الله خلق الأرواح جملة واحدة ، على هيئة كرة ، ثم شطرها ، فإذا صادف الروح قسيمه ، أحبه ، فيكون الالتئام الذى لا فطور معه ، وكذلك إذا قرب منه أو دانى قسيمه فبحسب ذلك يكون وقوع المودة ، وتصادف المحبة ، ويقع التباين والتقاطع بقدر تباينهما(٢) .

ثم يكشف بعد ذلك عن ماهية الحب وحقيقته ، ويتوصل من خلال تتبعه لتلك العاطفة إلى أنه لا يمكن تحديد ماهيتها ، ولا إدراك كنهها بوصف أو تحليل ، حيث تعجز العقول والأفهام عن تحديد ذلك ، فيقول د قال : هيهات ، بعد على الأوهام ، ورق عن الأفهام ، فأعوز العقول ، وأعجز التحصيل هو أعز سلطانا ، وأعلى مكانا ، وأوغر جوانب ، وأمنع مطالب أن يتسلط عليه ملك الفهم ، أو يحويه حد العلم .. الخ »(٣) .

ويستعرض الحصرى آراء عدد من العلماء والحكماء ، وبعض الفلاسفة

---

(١) المصون ص ٩٨ .

(٢) المصون ص ١٠٣ .

(٣) المصون ص ١١٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى ذلك، فينقل عن ابن داود قوله: « هو شيء لطيف عن أن يعاين بالأبصار، أو يدرك بالفحص والاعتبار، إن رمت إخفاءه وجد، أو حاولت إظهاره فقد، فهو شيء يمنعنى من وصف جنسه اشتغالى به فى نفسه »(١).

ويقول: « سئل أعرابى عنه، فقال: هو أعمض مسلكا فى القلب من الروح فى الجسم، وأملك بالنفس من النفس ... وسئل بعض الحكماء عنه، فقال: هو جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب مالك، وملك قاهر، وسلطان قادر، مسالكه لطيفة، ومذاهبه متضادة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها ... ووصفه آخر فقال: هو داء تذوى به العقول الصحاح، وتسل منه الأرواح، وهو سقم مكتتم، وجمر مضطرم »(٢)، فهو شيء غامض بين السحر والجنون، والجبر والاختيار، فليس أمره إلى الرأى فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره، بل قدرته أغلب، وجانبه أعز من أن تنفذ فيه حيلة حازم، ولطف محتال.

وينتقل من ذلك إلى وصف أثر الحب على النفوس والقلوب، وما يحدثه فى المحبين من أحوال، ويصيبهم به من أمراض، والعديد من العلل والأسقام، التى قد تودى بحياة أصحابها، كما يكشف عما يصون هذه العلاقة ويحفظها، من ستر وصبر، وقوة تحمل، ولما يصدر عنه من معاناة وألم، وخلال ذلك يعرض لآراء عدد من الفلاسفة اليونانيين فى تعريف الحب، وتحديد ماهيته وما يحدثه فى المحبين، من أمثال فيثاغورث، وجالينوس، وبطليموس، وأبقراط وهى آراء فلسفية نقلها الحصرى عن ابن داود، أو لعله نقلها من مترجماتهم مباشرة، حيث شاعت مؤلفاتهم، التى ترجمت عن الإغريقية، فى كل من المشرق والمغرب على السواء، ولكنه لا يميل إلى تصديقها، ويراها تقوم

---

(١) المصون ص ١١٦
(٢) المصون ص ١١٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الحدس والتخمين[١]، دون أن يكون لها أساس من الصحة، لكنه يذكرها حتى يستقصى كل ما قيل عن تلك العاطفة .

وهكذا يستمر الحصرى فى تنقله بين عناصر هذا الموضوع ، يسهب ويستطرد ، حتى يضع بين أيدينا العديد من الأشعار ، والقصص والأخبار، والحكايات المشوقة .

ويتوصل إلى أن الحب ليس على وتيرة واحدة ، بل هو درجات ومراحل مختلفة ، كل مرحلة تفضى إلى التى تليها ، ولكل حالة خصائصها وسماتها ، وينقل فى ذلك عن المرزبان : والجاحظ ، ونفطويه ، والثعالبى ، وابن داود مستشهدا ببعض النماذج التى تؤيد ما يعرضه[٢] .

أما أفضل الوسائل التى تعمل على دعم تلك العلاقة ، وصيانتها من الوشاة والعذال . فتتمثل فى كتمان أمرها ، والحفاظ عليها سراً مدفونا فى القلوب، وهو ما لا يقدر عليه بعض المحبين ، فيفضح نفسه دون أن يدرى ؛ وذلك عن طريق ما يظهر عليه من تغييرات نفسية وجسمانية ؛ يحدثها سرور التلاقى ، وحزن الفراق ، فيكفى بالحب مكتوما لا يخفى ، وبالبغض معلوما لا يوارى[٣].

كما يعرض الحصرى لدعائم المحبة : من صفاء وعفاف ، ووفاء وإنصاف ، ويكشف عن العوامل التى تعكر صفو المحبة ، من بعد وفراق ، وصد وهجر ، وما تسببه للمحبين من آلام وأمراض ، تصيب الأرواح والأبدان معا ، فتودى بها .

---

(١) انظر المصون ص ١١٦ - ١٢٦

(٢) انظر المصون ص١٢٧ - ١٣٥

(٣) المصون ص ١٥٤

المصون ... CamScanner

والشوق والهوى عوامل تثير كامنه ، وتحرك ساكنه ، من أمثال الحنين إلى الأوطان والتشوق إليها ، حيث تذكرهم بماضى عهودهم ، ومعاهد الأحباب وكذلك ما يحدثه نوح الحمام ، ولمع البروق ، وهبوب الصبا ، وغيرها من المثيرات ، التى تحرك سواكن الحسرات ، وتهيج كوامن الخطرات ، وإن كان الصادق الحب ، المخلص القلب لا يحتاج إلى شىء من ذلك ، فهو متحرك الطباع بغير داع(١) .

وخلال ذلك يستطرد الحصرى فى إيراد العديد من الأمثلة ، والشواهد الشعرية والقصص والأخبار ، التى تؤيد تناوله للموضوع ، كما هى طريقته فى كل موضوعات الكتاب ، التى تقدمت ، حتى ينتهى بنا المطاف إلى نهاية الكتاب ، فيقول : « فإذا أذنت كشفت وجهى عن كتاب جامع للأبواب ، مشتمل على فنون التأليف ، وضروب التصنيف ، وأنواع التصاريف فى مختار أخبار المتأخرين منهم والمتقدمين ، وأحوال المشهورين والمغمورين ، مفصل ببديع الشعر ، ورفيع النثر ، وأحكام الرصف وإتمام الوصف »(٢) .

ثم يختتم كلامه بالاستغفار من الاشتغال بفضول الكلام والأعمال ، وكأنه لا يزال يلحظ أولئك المخالفين واللائمين له ، على خوضه فى ذلك الحديث .

وهكذا سار الحصرى فى كتابه ، فلم يسلك فى دراسته لموضوعه طريقة منظمة مرتبة ، تقوم على تقسيم الكتاب إلى أبواب محددة ومرتبة ، أو يعمد إلى نظام خاص ، كما صنع بعض من تقدمه فى دراسة هذا الموضوع ، كابن داود وابن الوشاء ، بل صار فى تناوله ، ودراسته له بطريقة استطرادية ، ينتقل فيها من موضوع إلى موضوع آخر ، دون ترتيب أو تنظيم معين ، إلا

---

(١) المصون ص ٢٨١ (٢) المصون ص ٣٠٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما يستدعيه المقام ، ويسوق إليه الحديث ، لكنه مع ذلك استطراد منظم بعض الشيء ، حاول فيه الحصري جاهداً أن يعرض كل ما يتصل بموضوع الحب ، من قريب أو بعيد ، حتى وضع بين أيدينا تصورا كاملا لجميع جزئياته ولكنه لم يشبع بحث أية قضية أثارها فى كتابه ، بل شغل بتقصى الأشعار وجمعها ، وسرد العديد من القصص والأخبار ، لتأييد ما توصل إليه من آراء وأحكام ، سواء أكانت له أم لغيره ، من العلماء والأدباء والفلاسفة ، وهذه الجموع التى ذكرها قد حوت التجربة الإنسانيـــة فى مجال الحب من كافة أطرافها ، يتناول الموضوع أو القضية ، ثم يدعمها بالشعر الموافق ، والآراء المساعدة ، والأقوال المؤيدة ، مما يعطيه مكانة مرموقة بين المؤلفات التى عرضت لهذا الموضوع الإنسانى الخطير .

مصادر الكتاب :

يمكننا فى إيجاز أن نرجع كتاب الحصرى « المصون » إلى مصادره الرئيسة التى تتمثل فى الثقافة العربية والإسلامية بعناصرها المختلفة ، من أدب وحكمة وفلسفة ، استطاع الحصرى ان يوظفها فى رسم صورة حية لعاطفة الحب كما رسمها الشعر العربى ، فهو فى هـذا الكتاب واضح التأثر بالأدب العربى ، حيث نظر إلى تلك العاطفة الإنسانية من خلاله ، بالإضافة إلى تأثره بالثقافة الإسلامية ، حين آمن بالعفاف والطهر ، والتزم جانب العذرية ، وصاغ نظريته فى الحب من خلالها .

ولهذا فالشعر العربى يعد من أهم المصادر ، التى اعتمد عليها الحصرى فى كتابه ، ومثل الجانب الأكبر من مادته ، فهو مستقى من الوجدان العربى وقائم على صوره وأخيلته ، ومن هنا يمكننا أن نعتبر كتاب « المصون » مجموعا من المجاميع الشعرية الضخمة ، التى حفظت جانبا مهما من التراث الشعرى ، فى أعذب صوره وأدقها .

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كما كانت من مصادره المهمة أيضا ، العديد من الكتب التى تناولت تلك العلاقة ، وعرضت لها بالدراسة والتحليل من قبله ، وبخاصة كتاب ابن داود « الزهرة » ، وكتاب ابن الوشاء « الموشى » . أو الظرف والظرفاء ، وكذلك ماكتبه فى هذا الموضوع كل من الجاحظ ، وثعلب ، وابن طيفور ، وقدامة ابن جعفر ، وابن قتيبة ، وغيرهم من الكتاب الذين عرضوا لهذا الموضوع فى ثنايا كتبهم المختلفة ، من أمثال الحيوان ، والبيان والتبيين ، ومجالس ثعلب ، وفقه اللغة والمنهج ، وعيون الأخبار ، وغيرها من مصادر التراث المختلفة .

ولقد أشار الحصرى إشارات صريحة إلى هذه المصادر ، ولم يغفل منها أحدا أفاد منه ، كما هى عادته فى كل مؤلفاته الأخرى .

كما اعتمد فى كتابه أيضاً على بعض الآراء والأفكار الفلسفية ، ولكنها لم تمثل إلا جانبا ضئيلا من جوانب الكتاب ، ولعله تابع فى ذكرها أستاذه ابن داود ، حيث أورد الحصرى فى كتابه نفس النصوص الفلسفية ، التى تضمنها كتاب « الزهرة » .

ولكن الحصرى لم يعتمد عليها اعتمادا كبيرا ، ولم يأخذها على أنها من القضايا المسلم بها فى هذا الميدان ، بل أعلن تشككه فى صحتها ومدى صدقها ، عندما قال « فقد تكلم على مبادىء الهوى وأوائل الجوى بعض المتفلسفين ، من طريق الحدس والتخمين ، لا عن طريق العلم واليقين »(١) .

فهى لاتمثل كشفا جديداً ، أو أية إضافة مفيدة فى هذا المجال ، أكثر من كونها مظهراً لاستقصائه كل مايصل بهذا الموضوع ، مما يدل على سعة إطلاعه ، وعمق ثقافته ، وصواب منهجه فى دراسة تلك العاطفة الإنسانية المهمة .

---

(١) انظر المصون ص ١٢٤ .

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

مفهوم الحب عند الحصرى

ومع أن الحصرى يقدم كتاباً عن الحب وأحوال المحبين ، إلا أنه لم يقدم لنا تعريفا محدداً لتلك العلاقة الإنسانية ، يوضح من خلاله تصوره لها ، ويكشف عن حقيقتها وماهيتها ، وإنما يضع بين أيدينا أشهر الآراء والتعريفات ، التى شاعت بين القدماء والسابقين فى هذا الميدان ، والتى حاولوا عن طريقها فهم طبيعة تلك العلاقة الإنسانية ، والكشف عن أبعادها وجاءت هذه التعريفات على ألسنة العديد من الأدباء ، والشعراء ، والفلاسفة والحكماء ، وغيرهم من المفكرين والعلماء .

واكتفى الحصرى بعرض هذه الآراء ، وتقديمها بما تحمل من اختلافات وتضارب فيما بينها ، ليترك للقارىء الحرية فى أن يختار ما يروقه ، أو يراه صائبا منها ، أما رأيه هو ، فقد آثر ألا يفصح عنه ، حرصا منه على ألايكون عرضة للانتقاد أو التخطئة ، فى أمر أعيا العديد من الأدباء والعلماء ، وكثير من الفلاسفة ، والمفكرين من قبله ، ولم يصلوا فيه إلى تعريف محدد ، يمكن الاتفاق عليه ، أو الرضا عنه .

لقد حاول الحصرى جاهداً أن يكشف عن الأبعاد الحقيقية لتلك العلاقة الإنسانية ، ويحدد طبيعتها فى إطار إسلامى فلسفى ، تؤيده الثقافة العربية ، عن طريق تحليلها ، والكشف عن أبعادها وأوصافها ، التى يتميز بها المحبين دون غيرهم .

فبعد أن يعرض وصف البلغاء لهذه العاطفة ، والذى ذكره أحمد بن أبى طيفور ، فقال : « وصف أحد البلغاء الحب فقال : هو فضيلة تنج الحيله ، وتشجع قلب الجبان ، وتسخى كف البخيل ، وتصفى ذهن العى ، وتطلق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالشعر لسان المفحم ، وتبعث حزم العاجز المضيف ... الخ »[١] .

يتبع ذلك برواية الحديث الشريف « الأرواح جنود مجندة .... » وكذلك رأى بعض المفسرين ، الذين يرون أن الأرواح تتلاقى فى الملكوت فتتشام كتشام الخيل ... الخ »[٢].

ثم يورد فى ذلك أشعاراً ينتقيها لكل من أبى نواس وطرفة وجميل ، فيقول : ونظم أبو نواس هذا المعنى فقال :

يا قلب ويحك جد منك ذا الكلف
ومن كلفت به جاف كما تصف
وكان فى الحق أن يهواك مجتهدا بذاك أخبر عنا الغائر السلف
إن القلوب لأجناد مجندة لله فى الأرض بالأهواء تعترف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

وقال طرفة بن العبد :

تعارف أرواح العباد إذا التقوا فمنهم عدو تبقى وخليل

وقال جميل بن معمر :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زرنا فأصبح ناميا وليس وإن متنا بمنتقض العهد
ولكن باق على كل حالة وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد[٣]

وهكذا يحاول الحصرى أن يحدد تلك العاطفة عن طريق وصف آثارها وبيان ما تحدثه فى أهلها ، والذى يكشف عنه بعض البلغاء ، ثم يورد الحديث

---

(١) المصون ص ٧٤
(٢) المصون ص ١٠٠
(٣) المصون ص ١٠١/١٠٢ .

الشريف ، ولا يعقب على ذلك بأى شرح أو تحليل ، وكأنه يرى وضوح المعنى الذى يقصده من إيراد الحديث : فهو يدل على أن سبب المودة هو اتفاق والأرواح وائتلافها ، وسبب التباغض فيما بينها ، هو التناكر والاختلاف ، ويؤكد ذلك بما نقله عن بعض المفسرين والصالحين الذين يرون أن الأرواح تلاقت فى الملكوت قبل خلقها ، وهى فى عالم الذر ، فمنها ما تعارف فائتلف ، ومنها ما تناكر فاختلف .

ويستأنس لهذا المعنى الإسلامى بقول بعض الشعراء ، الذين تقدموا . حيث جاءت هذه الفكرة فى شعرهم مطابقة لفكرة العقيدة الإسلامية عن هذه العاطفة ، وترجمها كثير من الشعراء فى أشعارهم ، من أمثال : جميل ، وكثير ، وقيس ، والعباس بن الاحنف ، وذى الرمة ، وغيرهم من شعراء الغزل العذرى العفيف ، الذين أفسح لهم الحصرى حيزا كبيرا فى كتابه « المصون » .

أما عن الفلاسفة ووجهة نظرهم فى تلك العلاقة فيورد الحصرى طرفا منها ، على حسب ما تيسر له من الإحاطة بتلك الفلسفات الأجنبية ، فينقل عن بعض الفلاسفة الذين زعموا أن الله تعالى خلق الأرواح على هيئة كرة ، ثم قسمها ، فإذا ألف القسيم قسيمة ، أو شقيقه أخيه لاتفاق القسمين ، وازدواج الجزأين ، فيكون الالتئام الذى لا فطور معه ، وكذلك إذا قرب منه ، أو دانى قسيمه ، فبحسب ذلك يكون وقوع المودة وتصادف المحبة ، ويقع التباين والتقاطع بقدر تباينهما(١) .

ومع أن هذا التفسير الفلسفى لعاطفة الحب « أقرب إلى الأسطورة والخيال منه إلى الحقيقة ، ولكن الحصرى يستشهد له بقول أحمد بن عبدالله ابن طاهر :

---

(١) انظر : المصون ص ١٠٣ .

المصون - حقوق الطبع محفوظة

ترى أبداً نفس الكريم غريبة تجول فى الدنيا لتلقى وفاقها
فإن لقيت حرا كريما موافقا فما عذرها إن ذوقته فراقها

وقول الحسن بن وهب :

لنا جسدان حشوهما وفاء أصابا مهجة فتقاسماها(١)

ومع ذلك فالأثر الإسلامى أوضح فى هذين النصين وأظهر من أثر الفلسفة الأجنبية ، فقد تأثرا بالحديث النبوى الشريف « الأرواح جنود مجندة » ويقول بعض المفسرين : الأرواح تتلاقى فى الملكوت ، وبما نقله الحصرى من قول بعض الكتاب إلى أخ له : « إنى قد صادفت منك جوهر نفسى ، فأنا غير محمود فى الانقياد إليك بغير زمام ، فإن النفس يتبع بعضها بعضا »(٢) .

فالأبيات وهذه المقولة تصدر عن النظرة الإسلامية لتعارف الأرواح ، وتآلف النفوس . وقيام المودة بينها ، قبل أن تصدر عن نظرة الفلاسفة فى انقسام الأرواح وانشطارها إلى قسمين كما زعموا .

وبعد حديث طويل ، عن المحبين وأحوالهم ، وسرد العديد من قصصهم ونجاربهم فى هذا الميدان ، كالنظام ، وأبو هذيل العلاف ، وعمر بن أبى ربيعة ، وولد كسرى ، يعرض الحصرى عدة تفسيرات أخرى لهذه العاطفة أيضا ، فيقول فى وصفها : « قد بعد على الأوهام ، ورق عن الأفهام فأعوذ العقول ، وأعجز التحصيل ، هو أعز سلطانا ، وأعلى مكانا ، وأوغر جوانب ، وأمنع مطالب ! أن يتسلط عليه ملك الفهم ، أو يحويه حد العلم »(٣) .

---

(١) المصون ص ١٠٣ .
(٢) المصون ص ١٠٤ .
(٣) المصون ص ١١٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم ينقل رأى ابن داود فيه فيقول : « قال أبو بكر بن داود الأصفهانى: هو شىء يلطف عن أن يعاين بالأبصار، أو يدرك بالفحص والاعتبار الخ »(١).

وسئل أعرابى عنه فقال : « هو أغمض مسلكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس . . . فهو بين السحر والجنون ، ولطيف المسالك والكمون »(٢) .

وسئل عنه بعض الحكماء فقال : « هو جليس ممتع ، وأليف مؤنس ، وصاحب مالك ، وملك قاهر ، وسلطان قادر ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه متضادة. وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها(٣) .

ووصفه آخر فقال : « هو داء تذوى به العقول والأرواح ، وتسل منه الأرواح ، وهو سقم مكتتم ، وجمر مضطرم ، فالقلوب به منضجة ، والعيون له ساكبة . . الخ »(٤) .

ويستمر الحصرى فى سرد هذه التعريفات المختلفة للحب ، حتى يصل إلى رأى بعض الفلاسفة من اليونانيين ، فيقول منبها على رأيه فيما يقولون :

« فقد تكلم على مبادىء الهوى ، وأوائل الجوى ، بعض المتفلسفين ، من طريق الحدس والتخمين ، لا من طريق العلم واليقين ، فقال فيثاغورث العشق طمع يتولد فى القلوب ... الخ »(٥) .

وينقل آراء كل من فيثاغورث ، وجالينوس . وبطليموس ، وغيرهم من فلاسفة اليونان ، وإن كان لا يطمئن إلى آرائهم فى هذه العلاقة الإنسانية ،

---

(١) المصون ص ١١٦ .
(٢) المصون ص ١١٨ .
(٣) المصون ص ١١٨ .
(٤) المصون ص ١١٨ .
(٥) المصون ص ١٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأنها لا تقوم على العلم واليقين ، وإنما هي مجرد حدس وتخمين [1] ، ولكنه يذكرها ليستوفي كلامه عن تلك القضية من كل ناحية .

ومع هذا العرض المسهب والمستقصي لمعظم الآراء ، التي عرضت لفكرة الحب والهوى ، لم يصل الحصري إلى فكرة محددة ، أو يختار تعريفا واضحا له ، فهو في نظره لا يندرج تحت فكر أو منطق ، ولا يقترب من عالم الحس والمادة ، وإنما يتصل بعالم الإلهام والشعور ، بحيث يظهر أثره ، ويرى تأثيره ، دون أن تنكشف حقيقته ، أو يدرك سببه ، وهذا ما جعل الحصري يكتفي بعرض كل هذه الآراء ، وتقديم كل هذه الاتجاهات المختلفة حول تلك العاطفة الإنسانية الغامضة ! !

الجانب العذري عند الحصري

التزم الحصري في تناوله لموضوع الحب والهوى ، منذ بداية كتابه بالدعوة إلى العفاف والطهر ، وضرورة التمسك بكل منهما ، ولفت النظر إلى بيان مكانتهما ، وأثرهما الواضح في دعم المودة بين المتحابين ، وهو في ذلك يتبع منهج أستاذه ابن داود ، ويقتفي أثره ، في تناول هذا الموضوع الشائك ولا غرابة في ذلك ، حيث كان الحصري عالما أديبا ، ملتزما بالقيم الأخلاقية التي حث عليها الإسلام ، وتجلى ذلك واضحا فيما وصلنا من كتبه ومؤلفاته من أمثال « زهر الآداب » ، و « جمع الجواهر في الملح والنوادر » .

فيستهل كتابه بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « التقى أليفان ، نشآ في عراص الصفاء ، ورتعا في رياض الوفاء ...

---

(١) المصون ص ١٢٤ / ١٢٦ .

الممسو

وشهدت أن الهوى يخدع العقل ويسحره ، ويملك اللب ويقهره . . . وعهدته لا يعلق إلا بذوى الأفهام اللطيفة، والأوهام الشريفة ، من اتسعت فى الأدب باعه ، وامتدت فى الأدب باعه ، وطال فى الفضل ذراعه ، وزكا أصله وفرعه ، وكرم ذهنه وطبعه الخ »(١)

وهكذا حاول الحصرى ، وهو يتحدث عن تلك العاطفة الإنسانية ، أن يركز على دعوته إلى الإلتزام بالعفاف والطهر والنقاء ، فيقول نقلا عن ابن داود :

« قال أبو بكر بن داود : لو لم تكن عفة المتحابين عن الأدناس ، وتحاميهما ما ينكر فى عرف الناس ، محرما فى الشرائع ، ولا مستقبحا فى الطبائع ، لكان واجبا على كل واحد منهما تركه ، إبقاء على وده عند صاحبه وود صاحبه عنده »(٢) .

فهناك آداب مرعية ، يجب على المتحابين التزامها ، حتى يكتب لحبهم الحياة والاستمرار ، ولا يتعرض للهوان أو الفناء . ويحذر الحصرى من ترك ذلك ، معقبا على كلام ابن داود فيقول: « قال بعض الحكماء: فكروا فى أن اللذة مشوبة بالقبح ، ثم فكروا فى انقطاع اللذة وبقاء ذكر القبح »(٣) .

وينطلق من هذا التحذير إلى الاستشهاد بمجموعة من الأشعار ، التى يدعم بها وجهة نظره ، حيث التزم أصحابها بدعوة الإسلام إلى مخالفة الهوى وكف نوازعه ، والسيطرة عليها ، فيقول : قال : عبد الله نفطويه :

---

(١) المصون ص ٤١ . ٥٠

(٢) المصون ص ١٩٦ .

(٣) المصون ص ١٩٦ .

ليس الظريف بكامل فى ظرفه حتى يكون عن الحرام عفيفا
فإذا تعفف عن محارم ربه فهناك يدعى فى الأنام ظريفا

وقال أيضاً :

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعنى منه الحياء وخوف الله والحذر
وكم خلوت بمن أهوى فيقنعنى منه الفكاهة والتحديث والنظر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم
وليس لى فى حـــرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان فاحشة لا خير فى لذة من بعدها سقر (١)

وقال سعيد بن حميد :

زائر زارنا على غير وعـــد يخطف الخصر مترف الأرداف
غالب الخوف حين غالبه الشو ق وأخفى الهوى وليس بخافى
غض طرفى عنه تقى الله واختر ت على بذله بقـــاء التصاف
ثم ولى والخوف قد هز عطفيـ ـه ولم يعرض لباس العفاف (٢)

ومن الأشعار التى لم تنسب لأحد ، وتعبر عن فكرة العفاف والطهر فى تلك العلاقة ، ما يرويه الحصرى لأعرابى فيقول : قال أعرابى :

ويوم كأظفور الحبارى قطعته بعزة والوشين فيهم تعجرف
بلا جزع إلا حديث مودة عليها رقيبان التقى والتعفف (٣)

وقال آخر :

وبتنا خلاف الحى لا نحن منهم ولا نحن بالأعداء مختلطان

---

(١) المصون ص ١٩٦ .
(٢) المصون ص ١٩٨ .
(٣) المصون ص ١٩٨ .

الممسو... بواسطة CamScanner

نذود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كان قلبانا بشا يخفان[1]

كما يروى بعض الأشعار والأخبار فى تلك الناحيـــة عن النساء ، منها ما قالته عاتكة المرية ، التى أحبت ابن عم لها ، فأرادها على نفسها ، فقالت تعلمه ما يجب أن تكون عليه علاقة المتحابين من الطهر والعفاف :

وما طعم ماء أى ماء يقوله تحدر عن غر طوال الذوائب
بمنعرج أو بطن واد تدأبت عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذا عن متونه فما إن به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب[2]

ويذكر أن أعرابيا خلا بصاحبته ، فقيـل له : ما كان بينكما ؟ فقال : ما زال القمر يزينها ، فلما غاب أرتنيه ، فوضعت كفى على كفها ، فقالت : مه ، لا تفسد ما بيننا ، فقلت : والله ما يرانا إلا الكواكب . فقالت : ويحك وأين مكوكبها ؟ فانفضضت عرقا ، ثم لم أعد[3] .

وقال الحجاج لليلى الأخيلية : سألتك بالله يا ليلى ، هل أحسست من توبة أمرأ تكرهينه ؟ قالت : لا والذى قضى عليه بالموت ، إلا أنى توهمت فيه ذلك ، فأنشدته معرضة له :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فذلك شىء ما إليـــه سبيـــل
لنا صاحب لا نبتغى أن نخونه وأنت لأخرى فارع ذاك حليل

فهو الذى قضى عليه الموت ، ما فهمت عليه إشارة بعدها لشىء أكرهه[4]

---

(١) المصون ص ١٩٨ .

(٢) المصون ص ١٩٩

(٣) المصون ص ١٩٩

(٤) المصون ص ١٩٩ / ٢٠٠

المصور - محمد توفيق - Scanned with CamScanner

وقال آخر :

ألا يا شفاء النفس لو يسعف النوى
ويحوى فؤادا ما تبوح سرائره

أنيلى فتى حققت قول عدوه
عليه وقلت فى الصديق معاذره

أحبك يا سلمى على غير ريبة
وما خير حب لا تعف ضمائره(١)

وهكذا يعرض الحصرى العديد من أشعار الأعراب والعذريين ، وأخبارهم وكلها تدعوا إلى الطهر والعفاف . وتحث على كل منهما ، وتعلى قدره ، مما يدل على أنهم قد اعتدوا إلى نظرة متميزة فى العفاف ، واقتنعوا فيها بأنه هو الذى يحفظ الحب ، ويحميه ، وأن هذا الشعر قد صار معبراً عن وجدان المجتمع الإسلامى تجاه تلك العاطفة . وصور موقفه من قيم الحب وأخلاقياته التى تبعث على التزام الطهر والعفاف ، بحيث لم يعد هناك حاجة إلى معرفة قائل هذه الأشعار ، بعد أن صارت ميراثاً اجتماعيا ، ولم يقتصر صدورها عن الشعراء العذريين وحدهم ، بل كثر فيها أن تأتى منسوبة إلى المجهولين وغيرهم من الأعراب .

وهكذا وجد الحصرى فى الرواية الأدبية ما يصور ذلك الانطباع بالعفاف ويؤكد الإيمان بضرورته ، كما عرفه المجتمع العربى المسلم فى عهوده الأولى .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأدب والنقد فى كتاب المصون

يمثل الشعر فى كتاب « المصون » أبرز جانب من جوانبه ، ويحتل أكبر قدر فيه ، حيث كان المصدر الرئيس ، الذى درس الحصرى من خلاله عاطفة الحب ، وما يتعلق بها من أمور مختلفة ، وجاءت بقية الجوانب الأخرى فى الكتاب ، من تحليل ونقد ، وأخبار وقصص ، أو قل النثر بشكل عام ضئيلة ، إذا ما قورنت بهذا الجانب الشعرى ، حتى ليخيل للناظر فى جوانب هذا الكتاب ، أنه أمام مجموع شعرى ، كتلك التى صنعها القدماء ، لولا أنه يتناول موضوعا موحدا .

لقد أورد الحصرى فى كتابه هذا قرابة الألفين من الأبيات الشعرية ، التى جاءت فى صورة مقطوعات ، وقصائد مختارة ، إنتقاها من أجمل وأروع ما قاله الشعراء فى الحب والعشق والهوى ، على امتداد تاريخهم من الجاهلية حتى العصر العباسى ، وقد احتكم الحصرى فى ذلك الاختيار إلى ما وهبه من تذوق فنى ، وما تمتع به من ملكات أدبية أصيلة ، وكما هو معروف ، اختيار الرجل قطعة من عقله .

ولكن الحصرى تحفظ كثيرا مع شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، فلم يكثر من الاستشهاد بأشعارهم ، ولم يورد شعرا إلا لعدد قليل منهم ، من أمثال امرىء القيس ، والنابغة ، وعدى بن زيد ، وطرفة بن العبد ، والأعشى ولبيد ، وأبو صخر الهذلى ، وأمية بن أبى الصلت ، والصمة القشيرى ، وبعض المغمورين .

والذى دعاه إلى هذا التحفظ ، وعدم الإكثار من أشعارهم ، أن الشعر الجاهلى لم يعرض للعواطف بالتحليل ، ولم يرتق إلى آفاق المشاعر البعيدة عن الحس واللهو إلا قليلا ، ولم يتجاوز فى أغلبه الأوصاف الحسية للمرأة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصور اللهو والمتاع بها ، وكذلك تابعه شعر صدر الإسلام ، الذى ظلت نظرته إلى العاطفة قريبة من الاتجاه الجاهلى ، ولم يطرأ عليها تغيير يذكر ، سوى التخلص من الفحش فى القول ، والإعراض عن وصف الدبيب إلى النساء (١) .

وهكذا فلم يتمكن الشعر فى هذه الفترة القصيرة لظهور الإسلام من التأثر بالمعانى الإسلامية . فجاء نصيب العصر الجاهلى وصدر الإسلام من الشعر فى هذا الكتاب قليلا ومحدودا لذلك .

أما الجانب الكبير من الشعر فى هذا الكتاب ، فقد فاز به كل من العصر الأموى والعصر العباسى ، حيث تمكن الوجدان العربى خلالهما من أن يتمثل الصورة ، التى يريدها الإسلام ، فى الأخلاق والعادات ، وشتى مواقف الحياة المختلفة ، كما أن البيئة الحضارية الجديدة ، قد أحدثت هى الأخرى ، العديد من التغييرات الواضحة فى حياة العرب الثقافية والإجتماعية حيث رقت المشاعر وارتقت الأحاسيس ، وتعمق الشعراء فى تحليل المعانى وتمكنوا من التعبير بسهولة عن الخوالج المركبة ، كما ارتقت لغة الشعر ، بما أصابها من عذوبة وسهولة وتأنق ، بعد أن هجرت الألفاظ الحوشية ، وتخلصت من التعبيرات البدوية الجافة ، بما ناسب معانى الحب ، وصلح للاستشهاد به على مسائله المختلفة .

لقد ضمن الحصرى كتابه أشعار كثير من الشعراء . الذين اشتهروا بالحب وعاشوا تجربته ، من أمثال جميل ، وكثير ، وعروة بن حزام ، ومجنون ليلى وقيس بن ذريح ، وذى الرمة ، وعروة بن أذنية ، والعباس بن الأحنف ، وغيرهم من عشاق العرب المشهورين ، الذين تغنى الناس بأشعارهم .

كما أورد أيضا كثيراً من الشعر للشعراء الذين تكلفوا ذلك ، باعتباره

---

(١) انظر دراسة الحب ص ١٨٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مظهراً من مظاهر الشاعرية ، وفنا من فنون القول ، فذكر أشعاراً كثيرة لأبي تمام، والبحتري ، وابن الرومي ، والمتنبي ، وابن داود ، وبشار، ومسلم ابن الوليد وغيرهم من الشعراء ،كما ذكر الحصري لنفسه بعض المقطوعات ، التي قالها في هذا المجال أيضا .

ولكن ما يمكن ملاحظته في هذه الرواية عن الشعراء ، أن الحصري تابع أستاذه ابن داود ، ونهج نهجه في أمرين مهمين ، برزا في كتابه :

أولهما : اعتداد الحصري برواية أشعار الآحاد ، غير المشهورين من الرجال والنساء ، ممن لاتهتم بهم معاجم الشعراء ، أو تترجم لهم معاجم الطبقات ولم تروى شيئا عنهم ، لأنهم من المغمورين ، من أمثال : المؤمل بن أميل ، والحكم بن قنبر ، وعاتكة المرية ، وأبو القاسم الزعفراني ، وعروة بن مرة الحنفي ، وإسحاق الكوفي ، وطريح بن إسماعيل الثقفي ، ومحمد بن سعيد السعدي ، ويحيى بن منصور الذهلي ، وحمزة بن أبي ضيغم ، وغيرهم من الشعراء المغمورين .

وثانيهما : أن الحصري قد اهتم اهتماما ظاهرا برواية أشعار المجهولين ، والأعراب غير المعروفين ، ووصلت شواهده من أشعارهم ، والتي نسبها إلى «قال آخر» ، ما يقرب من تسعين موضعا في الكتاب، كما وصلت الشواهد التي نسبها إلى الأعراب في عشراب الموضوعات إلى مايقارب ذلك ،بخلاف ماقاله بعض المتوطنين ، أو رجل من نجد، ورجل من بلعنبر، ورجل من بني كلاب أو غلام من فزارة ، وأعرابي من نجد . وبعض البغداديين ، وقالت امرأة ، إلى آخره من رواية من المجهولين من الشعراء .

ونستطيع أن نتمثل الفائدة التي تحققت من جراء ذلك العمل ، في أن أكثر الأشعار التي رويت عن هؤلاء المغمورين ، والأعراب والمجهولين ، تحدثت عن قيم إسلامية ، وخلقية عظيمة ، كالعفاف والوفاء ، وصورت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرا من المشاعر الصادقة ، على الرغم من بساطتها وسهولة تعبيرها ، وبتسجيلها أدى الحصرى خدمة جليلة للأدب العربى والوجدان العربى، حيث حفظ لنا ترانا بجيدا ، يعبر عن نظرة المجتمع العربى لهذه العاطفة ، ويوضح معاييره فى التعبير عنها .

ولهذا يمكن القول بأن هذا الحشد الهائل من الأشعار ، التى اشتمل عليها كتاب « المصون » وامتدت مساحته الزمنية من الجاهلية حتى العصر العباسى قد استطاع أن يعبر بصدق عن التطور ، الذى أصاب عاطفة الحب عند العرب ، فارتقت من عالم الحس والكثافة. إلى عالم الروح السامية ، يظللها العفاف والطهر ، وترفرف عليها راية الصفاء والنقاء ، مما يؤكد على أن الحب العذرى العفيف من نبت البيئة العربية الإسلامية الخالصة ، ولا تأثير فيه لفكر وافد أو دخيل ، والشعر العربى الذى اعتمد عليه الحصرى لإثبات تلك الحقيقة ، خير شاهد على ذلك . وأوضح دليل يمكن الاعتماد عليه لدحض ذلك الإدعاء .

أما جانب النقد الأدبى وموضوعاته، التى تضمنها هذا الكتاب، ووردت بين طيات صفحاته ، فكان ضئيلا جداً بالنسبة لما احتواه، من الكم الهائل من النصوص والأخبار والطابع الذى يغلب عليه هو النقد الذاتى ، القائم على ما يتمتع به الحصرى من تذوق فنى، وملكة أدبية ، فهو لا يصدر حكما قاطعا ، أو يبدى رأيا صريحا فى قضية أدبية ، أو نص معين إلا نادرا ، وأغلب أحكامه النقدية التى وردت فى ثنايا الكتاب ، جاءت غير معللة أو مسببة ، ولا تتعدى أن تكون أحكاما سريعة لا تتعمق الموضوعات التى تعرض لها ، وإنما تجىء فى عبارات موجزة ومقتضبة ، يكتفى فيها الحصرى بإبداء استحسانه أو قبوله وقد يرد بعض المعانى الشعرية التى يعرضها إلى أصولها ، وينوه بشأن أصحابها ، فكثيرا ما يقابلنا فى كتابه قوله : « ويستحسن كذا ، وما أحسن

كذا ، ومن أجود ماقيل ، وقد أحسن وأجاد ، وفلان قد بلغ مرتبة الإجادة والإستحسان إلخ .

وهذه تعبيرات شاعت فى الكتاب ، وتقابلنا كثيرا بين طيات صفحاته وإن كان كثيرا مايورد الأشعار التى يختارها ممثلة للفكرة التى يريد التعبير عنها ، دون أن يسعفها بتعليق ، ويترك الحكم عليها للقارىء والأمثلة لذلك كثيرة ، منها مانقله عن الأحوص ، فيقول قال الأحوص بن محمد :

ألا تلمه اليوم أن يتبلدا ... فقد غلب المحزون أن يتجلدا
إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا ... فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى ... وإن لام ذو الشنآن فيه وفندا
وإنى لأهواها وأهوى لقاءها ... كما يشتهى الصادى الشراب المبردا
علاقة حب لج فى سنن الصبا ... فأبلى وما يزداد إلا تجلدا

ثم يتبعه بنص آخر ، فيقول : وقال آخر :

ماذاق بؤس معيشة ونعيمها ... فيما مضى أحد إذا لم يعشق
الحب فيه حلاوة ومرارة ... سائل بذلك من يطعم أو ذق[1]

وينقل أبيات فى نفس المعنى لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فيقول بعد أن يعرف به فى إيجاز : وهو القائل :

شققت القلب ثم ذررت فيه ... هواك فليم فالتأم الفطور
تعلغل حب عثمة فى فؤادى ... فبادیه مع الخافى يسير
تعلغل حيث لم يبلغ شراب ... ولا حزن ولم يبلغ سرور
غنى النفس إن أزداد حبا ... ولكنى إلى وصل فقير

ثم يعلق عليها بقوله : « أخذ البيت الثالث سلم الخاسر فقال[2] :

---

(١) المصون ص ٥٣ ـ ٥٤ . (٢) المصون ص ٥٦ ـ ٥٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سقتنى بعينيها الهـــوى وسقيتها ... فدب دبيب الخر فى كل مفصل

وقال أبو نواس الحكمى :

أحب اللوم فيها ليس إلا ... لترداد اسمها فيها آلام
ويدخل حبها فى كل قلب ... مداخل لم يغلغلها المـــدام

وقال بعض المحدثين :

مازلت تغويني وتخطب خلتى ... حتى حللت بحيث حل شرابى
ثم انصرفت بغير جرم كان لى ... ماهكذا الأحباب للأحباب إلخ

وأمثال ذلك كثير ، فلا تخلو منه صفحة من صفحات الكتاب ، دون أن يعلق عليها، أو يوضح العلاقة بينها، وإن تعرضها بتعليق أو توضيح جاء فى كلمات قليلة تعبر عن استحسانه واستجادته ، من أمثال قوله حكاية عن سعيد بن المسيب : « وسمع سعيد بن المسيب قول عبد الله بن محمد بن نمير الثقفى :

ولم ترعيني مثل سرب رأيتـه ... خرجن إلى التنعيم معتمرات
نزلن بفج ثم رحن على منى ... يلبين للرحمن مؤتجرات
ولما رأت ركب اليمرى أعرضت ... وكن من أن يلقينه حذرات إلخ

فقال : هذا والله مما يستحسن استماعه ، ويلذ إنشاده ثم قال :

وليست كأخرى وسعت جيب درعها ... وأبدت بنان الكف للجمرات
وغالت بنان المسك وحفا مرجلا ... على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت ... برؤيتها من راح من عرفات[1]

ويعلق على نص آخر فيقول : وما أحسن ما قال القائل :

الحب يترك من أحب مدلها ... حيران أو يقضى عليه فيسرع
الحب أهونه شـــديد قادح ... يبكى الألد من الرجال فيصرع
من كان ذا حزم وعزم فى الهوى ... وشجاعة فالحب منه أشجع[2]

(١) المصون ص ٦٦ .

(٢) المصون ص ٧٣

ثم يشفعه بعدة نصوص فى نفس المعنى المراد ، دون أن يوضح مابينهما ، فيقول :

وقال آخر :

ألا قاتل الله الهوى كيف يقتل ... وكيف بأجسام المحبين يفعل
فلا تعذلونى فى غرامى فإننى ... أرى سورة الأبطال فى الحب يبطل(١)

وقال عمارة بن عقيل :

ورمى الهوى منا القلوب بأسهم ... رمى الحماة مقاتل الأعداء
ومن العجائب قتله اكرامنا ... وشدادنا بمكائد الضعفاء(٢)

كما تراه يعقد الموازنات السريعة ، التى يقارن فيها بين شاعرين أو أكثر تناولوا موضوعا محدداً ، أو عرضوا لمعنى معنيا ، فيقول : وقال السيد الحميرى :

أقصدتنى بالسهم حين رمتنى ... أم عمرو وطاش عنها سهامى
أقصدتنى منها بطرف ثغر ... وبجيد ومعصم وقوام

وقال :

رمتنى ولم تعمد لقتلى بسهمها ... فصارت وكم رام يصيد ولا يدرى
بعينين حوراوين فى مقلتيهما ... علامة حبل البالى من السحر

البيت الأول من قول الأخطل :

وإن كنت قد أقصدتنى إذ رميتنى ... بسهميك والرامى يصيب ولا يدرى(٣)

وقال آخر :

تعرضن مرمى الصيد ثم رميننى ... من النبل لا بالطائشات الخواطف(٤)

---

(١) المصون ص ٧٤ .
(٢) المصون ص ٧٤ .
(٣) المصون ص ٨٥ .
(٤) المصون ص ٨٦ .

المصون ... Scanned with CamScanner

ضعائف يقتلن الرجال بلاوم فواعجبا للقاتلات الضعائف إلخ

وهذا كقول جرير :

إن العيون التى فى طرفها جور قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقول أبى العباس عبد الله الناشىء :

وشادن ماتولى وصفه أحد إلا أقر له بالعجز معترفا
يلوح فى خده ورد على زهر يعود من حسنه غضا إذا قطفا
لاشىء أعجب من خفيه أنهما لايضعفان القوى إلا إذا ضعفا

ويستمر فى سرد العديد من النصوص فى نفس المعنى دون تعليق يذكر فيقول : وقال أبو حية النميرى :

رمتنى وستر الله بينى وبينها عشية أحجار الكناس رميم
رمتنى التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم
فيا عجبا من قاتل لى أوده أشاط دمى شخص على كريم إلخ(١)

ومثل قوله « ولكن عهدى بالنضال قديم » قوله أيضا :

هل الأدم كالأرامى والبيض كالدمى معاودتى أيامهن الصوالح
زمان صلاحى عندهن شبيبتى لها سالف من لحظهن ورامح

وقال :

رمته إناة من ربيعة عامر تؤوم الضحى فى مأتم أى مأتم
يقان لها فى السر يفديك لايرح صحيحا وإلا تقتليه فألمى
ألقت قناعا دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم(٢)

وقوله فى البيت الأوسط مأخوذ من قول النابغة الذبيانى :

---

(١) المصون ص ٨٧ . (٢) المصون ص ٨٨ .

قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

ولا يعلق على ذلك سوى بقوله : « وهذا المعنى مر كثير . وإنما ألمع من كل شيء بالسير »[1].

وقد وردت موازنات عديدة على نفس النسق فى الصفحات التاليه :

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ - ٢٣٦ ، ٢٣٩ - ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ - ٢٧٦ إلخ .

وهو لا يتوسع فى هذه الموازنات ، وغالبا ما ينقلها عن غيره ؛ دون أن يضيف إليها تعليقا زائدا ، أو حكما قاطعا مجملا أو مفصلا إلا نادرا .

وفى بعض الأحيان يأتى ببعض الأحكام والتعليقات النقدية المجملة وغير المعللة ، معتمدا فى ذلك على تذوقه الخاص ، فيقول فى بعضها : « وقد أخبر بشار أن الحب إنما يتولد بالقلب والفكر ، دون السمع والبصر فقال :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو اللب
وما تبصر العينان إلا من الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

ويعلق عليها قائلا : « وقد صدق فيما نطق ، إنما أحست الحواس الخمس ، بواسطة توسطتها النفس »[2] :

ويتضح ذلك أيضا فى تعليقه على أبيات نقلها عن ابن داود ، فى وصف الحب فيقول : « لقد أجاد ما أراد ، إذ كان العقل فى ملك الهوى وسلطانه ، فكيف يستطيع التهدى إلى مكانه ، وهو لا يلحظه رفعة ، ولا يلحقه منعة ، وإنما يهتدى إلى الأعراض الغامضة المسالك ، والأمراض الفائتة المدارك ، بالدليل من صفة العلة ، فكيف بما يضعف عنه إدراك الحواس ، ويلطف عن أوهام الناس »[3] .

---

(١) المصون ص ٨٨ .
(٢) المصون ص ٩٢ .
(٣) المصون ص ١١٨

المصون في سرقات أبي تمام

وأحيانا ينقل عن غيره بعض التعليقات والانتقادات ، دون تعليق أو إضافة . فينقل عن مصعب بن عبد الله الزبيرى قوله : « كان عروة بن أذنية الليثى نازلا فى دار أبى بالعقيق فسمعته ينشد لنفسه :

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التى زعمت بها فكلاكما أبدى لخلته الصبابة كلها الخ

فأتانى السائب المخزومى ، فقلت له بعد الترحيب والبشر ، ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أبيات لعروة ، فأنشدته الأبيات ، فلما بلغت إلى قوله ، « فدنا وقال لعلها معذورة » البيت ، طرب وصاح ، وقال : هـــذا والله الصادق والدائم الصبابة ، لا الذى يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة عنى فأهلى بى أضن وأرغب

لقد عدا هذا الأعرابى طوره ، وإنى لأرجو الله أن يغفر لصاحب هذه الأبيات بحسن الظن بها ، وطلب العذر لها ، قال : فعرضت عليه الطعام فقال : لا ، والله ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعاما حتى الليل ، وانصرف »(١)

كما ينقل عن ابن داود تعليقه على أبيات أبى الشيص ، التى يقول فيها :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنـــه ولا متقدم الخ

ولو لم يقل أبو الشيص فى عمره ، بل لو لم يقل أحد من أهل عصره إلا هذه الأبيات لـكانوا غير مقصرين (٢)

وقد تأتى له بعض المواقف النقدية ، التى يتوسع فيها بعض الشىء ،

---

(١) المصون ٥٤ : ٥٥ .
(٢) المصون ١٣٣ : ١٣٤ .

المصنو... Samsoumer ...

ويعطى فيها لمحات نقدية مختصرة ، من أمثال تعليقه على قول أبى القاسم الزعفرانى فى بيتيه :

لى لسان كأنه معادى ليس ينبى عن كنه ما فى فؤادى
حكم الله لى عليه فلو أنصف قلبى عرفت قدر ودادى

وهذا القول يحسن أحد طرفيه ، ويقبح إحدى جهته ، هو من المبالغة فى العجز ، عن صفة ما فى القلب ، من شدة الحب المستجاد ، ومن باب إظهاره لإضماره لا يراد (١) .

كما ينقل لنا المناظرة التى جرت فى مجلس ابن أبى عتيق ، حول شعر كل من عمر بن أبى ربيعة . والحارث بن خالد المخزومى ، فيقول : وذكر بحضرة ابن أبى عتيق شعر عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزوميين . فقال رجل من ولد خالد بن العاص : صاحبنا الحارث أشعر ، فقال ابن أبى عتيق : بعض قولك يا ابن أخى ، فلشعر ابن أبى ربيعة لوطة بالقلب ، وعلق بالنفس ودرك للحاجة ، ليس لشعر خالد ، وما عصى بشعر قط ، أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة ، فخذ منى وما أصف لك : أشعر قريش من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن صاحبه :

فقال الذى من ولد خالد : صاحبنا الذى يقول :

إنى وما نحروا غداة منى عند الجمار تؤدها العقل
لو بدلت أعلى منازلها سفلا وأصبح سفلها يعلو (٢)

فقال ابن أبى عتيق : يا ابن أخى إستر على صاحبك ، ولا تشاهد المحاضر

---

(١) المصون ص ١٢٣ .
(٢) المصون ص ٢٧٢ .

المصون - محاولة بـ

بمثل هذا ، أما تطير الحارث عليها حين قلب ربعها ، فجعل عاليه سافله ؟ ما بقى إلا أن يسأل الله فى حجارة من سجيل وعذاب أليم ، ابن ربيعة كان أحسن للربع مخاطبة ، وأجمل مصاحبة إذ يقول :

سائلا الربع بالبكاء وقولا هجت شوقا إلى الغداة طويلا
أين أهل حلوك إذ أنت مسرو ر بهم آهل أراك جميلا الخ(١)

ومن المواقف النقدية التى توسع فيها الحصرى بعض الشىء، وأعطى فيها رأياً نقدياً معللا ومشروحا ، ما علق به على ما يقع فى بعض أشعار الشعراء من تناقض . فيقول : « وقال البحترى :

ما على الركب من وقوف الركاب بمغانى الصبا ورسم التصابى الخ

ثم نقض هذا المعنى فقال فى شعر آخر :

لا تقف بى على الطلول فإنى لست من أربع ورسم محيل الخ

فعلق على هذا بقوله :

« وليس يجب الإنكار ، على من اختلفت به الأطوار ، ودارت عليه الأدوار ، أن ينصرف شعره مع الأسباب المتصرفة، ويختلف قوله للأحوال المختلفة ، وإنما ينكر فى الشعر الواحد ، أن ينتكث فتله ، وينصرم حبله ، وتتناقض جهاته، وتتعارض جنباته »(٢) : ويدعم وجهة نظره هذه ويؤيدها بما ينقله عن على بن هارون فيقول: « قال على بن هارون بن المنجم: أنشدنى أبى ، قال : أنشدنى أبو أحمد ابن طاهر لنفسه :

ألم تر أن المرء تذوى يمينه فيقطعها عمدا ليسلم سائره
فكيف تراه بعد يمناه صانعا بمن ليس فيه حين تبدو سرائره

---

(١) المصون ص ٢٧٣ .

(٢) المصون ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

ثم قال : لا يعيب الشاعر أن يقول الشعر فى معنى ، ثم يقول آخر فى ضده بل ذلك دليل على فضل الشعر ، وقدرة قائله على التوصل إلى المعانى ، والتخلص إلى لطائفها ، قال : وأنشد فى نقيض بيتيه :

إذا راب منى مفصل فقطعته ... بقيت ومالى للنهوض مفاصل
ولكن أداويه فإن صح سرنى ... وإن هو أعيا كان فيه تحامل[1]

ومثل ذلك ما أبداه فى شعر جرير ، وإن كان قد نقله عن غيره من النقاد فيقول : « وقال الأصمعى : قرأت على أبى محرز خلف بن حيان شعر جرير ، فلما بلغت إلى قوله :

ويوم كلبهام القطاة محبب ... إلى هواه غالب لى باطله
رزقنا به الصيدا الغزير ولم يكن ... كمن نيله محرومة وحبائله
فيالك من يوم خيره قبل شره ... تغيب واشيه وأقصر عاذله

فقال خلف : ويحه ، وما ينفعه خير يؤول إلى شر ، فقلت : كذا قرأته على الشيخ أبى عمرو قرأته بن العلاء ، فقال صدقت ، وكذلك قال جرير : وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان عمرو بن العلاء ليقرئك إلا كما سمع ، قلت كيف يجب أن يكون ؟ قال : الأجود أن يقول : « خيره دون شره » فاروه كذلك ، فقد كانت الرواة قديما ، تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : « والله لا أرويه بعدها إلا هكذا »[2] .

فهذه الآراء النقدية وغيرها مما هو مبثوث فى ثنا الكتاب تعبر عن رأيه ،

---

(١) المصون ص ٢٧٧/٢٧٨ .

(٢) المصون ص ٢٣٣ .

ووجهة نظره النقدية ، ما دام قد نقلها ، ولم يعلق عليها ، فكأنه قد رضيها واقتنع بها !!

وأما من ناحية اختياره لنصوص كتابه : فقد اختارها بعناية فائقة ، حيث احتكم فيها إلى ذوقه الفني من جهة ، وملكته الأدبية من جهة ثانية ، وكان أمينا فى نسبة هذه النصوص إلى أصحابها ، وتحرى الدقة البالغة فى ذلك ، ومن أمثلة ذلك ، ما قاله فى نص اختلف فى نسبته لقائله ، فيقول : وقالت عنان جارية الناطق ، ورويت لأبى نواس :

حلو العتاب يهيجه الإدلال لم يحل إلا بالعتاب وصال(١)

ثم يروى القصائدة ، ويعلق عليها قائلا وأولها فى رواية من أثبتها لأبى نواس : :

إحبس جمالك أيها الجمال فأنا المحب وهذه الأطلال
فتر العيون على القلوب بلية وبكاء مثلك فى الديار محال

ولم يدخلها الصولى فى مجموع شعره (٢) .

لقد التزم الحصرى الأمانة العلمية فى نصوص كتابه الشعرية والنثرية ، فنسبها إلى أصحابها ، وأشار فى أحيان كثيرة إلى الكتب التى نقل عنها ، بدقة وأمانة ، قل أن تجدها فى الكتب المماثلة لكتابه ، وإن كان أحيانا ينقل عن بعض المجهولين والأعراب ، ولا يهتم بذكرهم ، ولعل ذلك يرجع إلى أن أشعارهم أصبحت ميراثا إجتماعيا مشاعا ، فلا يهم من الذى قالها .

---

(١) المصون ص ٢٣٨ .

(٢) المصون ص ٢٣٩ .

المصور - محمد بدوي

وبعد فيجب أن نذكر ما لهذا الكتاب من قيمة أدبية وتاريخية مزدوجة فهو كتاب أدبى ممتع، من ناحية النصوص والأخبـــار، والقصص التى احتواها، والتى قل أن يشتمل عليها كتاب واحـد، وأما من الناحية التاريخية، فهو يمثل مرحلة من المراحل التى مرت بها دراسة عاطفة الحب فى أدبنا العربى، كان لها دورها فى إثراء تلك الدراسة، وإرساء بعض المفاهيم التى تختص بها، مما أفاد منه كثيراً بعض الذين جاءوا من بعده، وساروا فى هذا الاتجاه !!

المصور

أهم مراجع البحث ومصادره

١ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ـ للحصرى القيروانى ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر

٢ ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ـ لابن بسام ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر

٣ ـ دراسة الحب فى الأدب العربى ـ د/ مصطفى عبد الواحد ، دار المعارف بمصر

٤ ـ عصر القيروان ـ أبو القاسم كرو ـ عبد الله شريط تونس ١٩٦٣ م

٥ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموى . طبع دار المأمون بالقاهرة ،

٦ ـ المصون فى سر الهوى المكنون ـ للحصرى ـ تحقيق حسن زكرى حسن ، طبع مكتبة الطالب بمكة المكرمة

٧ ـ الموشى ـ أو الظرف والظرفاء ـ لابن الوشاء

٨ ـ الزهرة لأبى بكر بن داود

د/ حسن زكرى حسن مدره

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة

قسم الأدب والنقد

الممسو